



إنك تزعم أنك عاقل ، وإنى أرى أكثر اهتمامك متجهاً إلى التأمل في الناس ودراسة نفوسهم ، ولا أكتفك إعجابك بكثير من دراساتك هذى ، فلماذا لا تستغل قدرتك هذه على الإلمام بالناس ونفوسهم ، في السيطرة عليهم واستغلالهم ؟ ... لماذا تصدمني بذكر عيوبى مجسدة مكبرة مهولة ، وأنت تستطيع أن تسيطر على وأن تبيت بعقلي ما دمت تعرف مواطن الضعف فيه ... ؟

— هذا الذى تطليبه يصنمه التاجر ، ويصنمه رجل السلك السياسى ، ويصنمه الجاسوس ، وتصنمه المرأة ؛ ولكن لا يصنمه الكاتب ، ولا الرسام ، ولا الشاعر ... ألم تقرئ تاريخ المتنبي ؟ أو لم تقرئ شعره ؟ هل رأيت في الناس من هو أحكم منه ، ومن هو أشد خبرة بالنفوس منه ؟ ألا تظنين أن المتنبي كان يستطيع اللبث بكل ملك من أولئك الملوك الذين قربوه وفضلوه على غيره من المقربين ؟ ألا تظنين أنه كان يستطيع أن يبيع سيف الدولة وأن يشتري الإخشيدى ؟ إنه كان من غير شك يستطيع ، فلماذا لم يفعل ؟ !

— لأنه كان سخيلاً ؟  
— قولى إنه كان سخيلاً في هذه ، وقولى إنه كان مجنوناً ، ولكننى أقول إنه كان أميناً  
— أميناً لمن ؟ ما كان أميناً لنفسه ، فلو كان كذلك لأفاد نفسه ، وما كان أميناً لساته أو أصحابه ، فلو كان كذلك لما سبهم وذكر عيوبهم ...

— كان المتنبي أميناً لك أنت ، وكان أميناً لى أنا ، وكان أميناً لكل الذين عاشوا بسده وقرأوا شعره ، فقد كشف لنا المتنبي عن حقيقة ربما كنا سنظل نجعلها لو لم يقفنا عليها ، ولكنه صرح بها ، وذكرها وقال لنا : يا خلق الله لا تشتروا للسبد إلا والمعصامه ، إن المبيد لأنجاس منا كيد ...  
— أو لم يكن المتنبي يعرف أن المبيد أنجاس منا كيد قبل أن تضطره الظروف إلى أن يقول هذا ؟

— صدق أنى أكره في المتنبي احتمال الطويل لكافور قبل أن يصفه هذا الوصف ، وصدق أنى لا أغفر هذا الاحتمال للمتنبي إلا بهذه الثورة التى نأرها على كافور آخر الأمر ، وصدق أنى لو كنت مكان المتنبي ما كنت تقرب من كافور ولا من غيره ، لأنى

من لوازم الفرس

## لو أكلت الشجرة أثمارها !

[ إلى الذين يريدون منى أن أكون مؤدباً ]

للأستاذ عزيز أحمد فهمى

—><—

— مالك مقطب الجبين ؟  
— بمض الدين أحبهم ساخطون على  
— من طول لسانك . تعلم الصمت ... وار للناس ... تأدب  
تجدهم يجيئونك ...

— إذا فعلت كذلك كرهت نفسى  
— هيباً ! ألا تحب نفسك إلا إذا كنت شتاما ؟  
— لست أشتم أحداً ، ولكن أرى ، وأفهم ، وأصف .  
والله يعلم أنى لا أقصد من وراء ذلك شيئاً ...  
— هذا أنكى وأمر . فقد كنت أحسب أنك تقصد من وراء ذلك إصلاح الدين تذكر عيوبهم

— ربما كان ذلك يجول بخاطرى أحياناً . ولكن عندما تحتدبى الحكمة أشهد على نفسى بأنى عاجز عن هذا الإصلاح .  
فلماذا الكون إله يدبره ، وهو قد رضى عن ناس فهداهم ، وهو قد أضل ناساً لم يرض عنهم ، وقد أنبأ الله رسوله المحمد بأنه لن يهدى من أضل الله ، ومن أنا إلى جانب الرسول حتى أزعج أنى أهدي وأرشد ؟ !

— إذن فالك لا تسكت ؟  
— لأن الله خلقنى ناطقاً ، فإذا لم أنطق عطلت رغبة من رغبات إلهى ، وأعدمت ييدى مبرر وجودى ، وكنت بعد ذلك جديراً بالفناء ، فليس لى فى هذه الدنيا عمل إلا أن أقول ...  
— تستطيع أن تعمل شيئاً غير ذلك ... ألسنت إنساناً عاقلاً ؟

— إذن فالسألة تدخل فيها الاعتبارات وليست مجردة منها ،  
والمتنبي كان يحب الدين بمطونه لا الدين يستحقون حب الإنسانية  
الخالصة ...

— هذا عيب كان في المتنبي ، وأنت تلحظين هذا العيب  
وتذكرينه ، وأنا أوافقك على ذكره وأعدته من مساوي المتنبي  
لا من حسنه ، وأزيد على ذلك فأقول لك إن هذا العيب هو الذي  
قضى على حياة المتنبي بعد أن قضى على كرامته أيضاً ، فانت  
تذكرين أنه هوجم في الطريق فأراد أن يهرب ، ولكن غلامه  
ذكره بكلام له ينسب لنفسه فيه الشجاعة ، فارتد ونازل مهاججه  
حتى لاق حتفه ... فلو لم يكن المتنبي يتهاون في الحق أحياناً  
لما نخر بشجاعته وهو يعلم أنه غير شجاع ، ولو كان قد أظهر نفسه  
على حقيقتها في شعره لما اضطر إلى أن يقف في آخر ساعة من  
ساعات حياته هذا الموقف المضطرب الذي مات فيه .. إن المتنبي  
لم ينه هذه النهاية إلا لأنه اضطرب بين فنه وأطاعه ... بين بيت  
الشعر الذي يفخر فيه بشجاعته وبين حبه للنجاة ورغبته في مواصلة  
التجوال بين أرباب المروش ...

— فإذا كنت أنت في موقفه فاذا كنت تصنع ؟

— أما أنا فإني لا أنقر إلا بالذي أحلى به من الفضائل  
إن كانت في فضائل ، وإني لا أذكرها على سبيل الفخر ، وإنما  
أسردها سرداً كما أسرد كل ما في من العيوب ، ولعلك تقرين بأنني  
أكثر من رأيت من الناس إظهاراً لعيوبهم ، وهذا من غير شك  
هو انتقام الطبيعة للسلطنة على عيوب الناس ومحامدهم أذكرها  
وأردها ، فأنا مع نفسي مثلنا أنا مع الناس ، وما دمت غير شجاع  
فلا يمكنني أن أقول إني شجاع ومقاتل ، وهذا هو الذي كان  
يمكنني من الهرب عند هجوم اللعدو لو أني كنت المتنبي ...

— وما الذي يمنك ما دمت تعترف بأن لك عيوباً من إصلاح

هذه العيوب ؟

— لا شيء . ولأرب أن من ذكر عيوبه كان هذا دليلاً منه  
على نية إصلاحها ، وهو من غير شك يتصلح قليلاً قليلاً ، ويتخلص  
من نواحي الضعف فيه شيئاً فشيئاً ، ومهما يكن فإن الصدق  
الذي يميزه ليس شيئاً هيناً ...

— أنا لا أوافق على أن يكون هذا الصدق مبرراً يستبقي

رأيت أصحاب السلطان يعززون بسلطانهم ، كما يمتاز أصحاب المال  
بأموالهم ، وكما يمتاز أصحاب الفكر بأفكارهم ، ولا يمكن أن يماثر  
ممتازاً ممتازاً إلا إذا كان أساس الملاقة بينهما استفتاء كل منهما  
عن الآخر ، وكان المتنبي يستطيع أن يستغنى كما استغنى أبوالملاء ،  
ولكن أطاعه ثقلت على نفسه فسوات بمض تاريخه ، وإن كانت  
أطاعه هذه هانت عليه أحياناً عند ما استمست فانقلب عليها  
مستهجناً ولكن كما يفضي الطفل على مشتهاه إن قصرت عنه بده  
— فالمتنبي عندك رجل سوء

— لا . ولا يمكن أن يكون كذلك . فالرجل الذي يفاضل

أصحاب السلطة حين يشمر أن كرامته مست لا يمكن أن يكون  
رجل سوء . وإنما رجل السوء الذي تمس كرامته كل يوم فيرضى ،  
والذي تهون عليه الإساءة بما يأكل من السمن والعسل ...  
هي المتنبي احتمل سيف الدولة ، وطأطأ الرأس لغضبه ،  
وهيبه لان لكافور واستمسك بعشرته وتطلق بنمائه ...  
أفأ كان يستلزم منه هذا أن يسكت عن الإفاضة بما يشمر به من  
وخز الألم ، أو أن يفيض بالذي لا يشمر به من الراحة والسعادة ؟  
وهيبه قد فعل هذا ... أفأ كنا نخسر هذه الثروة الفنية التي  
خلفها لنا غضبه والتي بعثها ثورته ؟ ثم ألم يكن المتنبي مضطراً  
في المجاملة أن يقول شعراً كذباً ككل شعر كذب قيل في عصره  
فات ولم يخلد غير شعر المتنبي ... ؟

— ولكن المتنبي قال شعراً كذباً

— أي شعر هذا الكذب الذي قاله ؟

— مدحه الأول لكافور ... أفأ كان كافور يستحق أن

يمدحه شاعر كالتنبي ... ؟

— ولم لا ؟ ألم يمدح الشعراء الحيوانات ؟ كافور رجل أحسن  
الظن بالمتنبي في البدء ، وأحسن على هذا استقباله ، وأحسن بعد  
هذا تكريمه ، وكل هذا جدير بأن ييمث في نفس الشاعر الراحة  
وهذه الراحة تيمث في نفسه حب جالبها ، وهذا الحب ييمث  
المدح ... على أنك إذا قرأت مدح المتنبي لكافور رأيت فيه  
تمحوظاً ملحوظاً ، ورأيت المتنبي يقول وكأنه يحس أن مـحه  
أكبر من ممدوحه ، ويكفيك هذا - فيما أظن - تصويراً صادقاً  
لإحساس هذا الفنان الذي رأى رجلاً هو يعرف النقص فيه ومع  
هذا فهو يحبه لتكريمه إياه ...

انصياعه له أكثر وأظهر من انصياع غيره مما لم يميزه الله بنعمة العقل ، ولعلك ترين أن أهل الفن وخدمهم والصالحين هم الذين يستسلمون لهذا القانون وأن غيرهم من الناس ينتكسون بمقولهم على أنفسهم ، ويلحظون في حياتهم من الاعتبارات ما لا تقيم له الطبيعة وزناً ... مثلما فعل المتنبي ...

— وهلا تريد أن تحسب المتنبي بين الفنانين ؟ ... هذا الشاعر المجيد الخالد ؟

— إنه فنان من غير شك ، ولكنه — غفر الله له — كان يتذبذب كما قلت لك بين الفن وبين أطاعه في الدنيا ، وكان يستطيع أن يبتقى من هذا ، وأن يصقل في نفسه كبريائه بأن يحرم عليها الترحي في الخلق دون الله ، ولكنه ضف أمام بهارج الدنيا فاختل ...

— كيف تقول إنه اختل ، مع أنك قلت إنه كان حكيمًا أو كما قلت أحكم الناس ؟

— كان حكيمًا لأنه كان يراقب الناس ، وكان إذا راقب يقيظ عقله ووقف على الحق والباطل من أمثالهم وأقوالهم ، وكان مختلفًا لأنه لم يكن يراقب نفسه ، بل إنه لم يكن يعرف فيم يمشي ، فهو يقول عن نفسه : إنه عاقل ، وإنه ذكي ، وإنه عالم ، وإنه حاسس وإنه فسيح ، وإنه أهل لكل جاه وكل سلطان ؛ ثم لا يقبل شيئًا أكثر من أن يسأل الناس أن يمطوه ، فإذا أعطوه فهم فضلاء ، وإذا لم يمطوه فهم أهل لهجائه ... وليس بعد هذا خلل وليس بعده اضطراب .

— وماذا كنت تحسبه يستطيع أن يفصل ، والحكمة لا سوق لها ولا ربح وراءها ؟

— كان يستطيع أن يرتق من صناعة أو من عمل ، وإلا فكان يستطيع أن يصبر على فاقة الحكمة ... وأن يسمد بنمائها  
عزيز أحمد لشمسي

الإنسان به عيوبه ، ويقضح به عيوب الناس . إن هذا صدق قبيح يجب أن يزول ...

— أما أنه قبيح فإنه قد يكون قبيحاً ... ولكن هذا لا يستيني ولا يعنيه ، ولا يحط من قدره ، فليس يعيب الصبر أنه صر ، ولا يعيب الليمون أنه حامض ، وإنما الصبر الميب هو الذي فقد صرارته ، والليمون الميب هو الذي عطب فذهبت حموضته ...

— يا لباقتك ! أما تستطيع أن تحبس هذه اللبابة لنفسك وأن تنتفع بها ... ؟  
— يا أنابتك ! أي زهرة في الدنيا تحبس أريجها عن الحياة ؟ إنها لا تستطيع ذلك لأنها وجدت للوجود لانفسها ... إن الكون ينادي في الخلائق ما منحها ... الثمرة تنضج فتغفر من غصنها إلى الأرض إذا لم تقطفها يد ، وأنت تريد مني أن تنضج الفكرة في رأسها وأن أزدورها لنفسى ؟ كنت أستطيع هذا لو أكلت الشجرة أثمارها ! ...

— إذن فأنت تطلب من يأكلك ...

— الذي يأكلني هو الذي يسمني ...

— وقد يفتك من يسمك فيفتك ...

— فلتكن إرادة الله ، ولست أجهل أن الله خلق من يأكل ومن يؤكل ، ومن يقتل ومن يُقتل ، وكما مات أصحاب الفكر في إيمانهم

— ستمود فتكسو نفسك بطولة لست أنت أهلها ، وأنت وقعت الآن فيما عبت على المتنبي الوقوع فيه ...

— لا يا هذه ، إني لم أقل إني مقاتل مغوار ، وإنما قلت إني مؤمن بالله وقضائه ، وإني لازم رأيي ، وإن لله قضاءه ... وأما المقاومة ، وأما هذه الشجاعة البدنية فإني أجهز الناس عنها ... إنما أنا كالجرذ أعرف أن لي في الحياة حقاً آخذه ، وأحاول أن آخذ هذا الحق ، ولا يعنى من هذا على بأن في الدنيا قطعاً وسنانير هي أقوى مني . ولست أفكر إن لاقيت القبط أن أقاومه لأنه لا جرد يقاوم قطلا ، وإنما هو يحاول الحرب إذا كان للحرب سبيل ، أما إذا فاجأه القبط استسلم له ، وربما هنا إليه ... تلك هي الطبيعة ، والكائنات — كما قلت لك — تنادى و « تهاتف » ويفنى بعضها في بعض ولا يبقى غير وجه الله الكريم . والكائنات تطاوع هذا القانون ولا تنكبر عليه ، وحق الإنسان أن يكون

